



تمثل رواية نجوى بركات «مستر نون» (دار الآداب) بحثًا ناضجًا في قضايا إنسان ما بعد الحرب، أو تنقيبًا في بقاياها. تقف الكاتبة اللبنانية على ذلك الردم، لا تعيد تشكيله، ولا تحاول تفكيكه أو ترميمه وإثما تدفع به إلى متهمة الموت، في عمل، أنتجته عقل خبير، ليهزّ الوجدان.

تبنى بركات روايتها على حالات موت متعددة، انتحارًا أو قتلًا أو عبثًا. وتستخدم كاتبًا تمّعت الكتابة عنه، لتجعل منه شاهدًا على عنفٍ ووحشية لا ينتهيان، وبذلك ينهض النص على حساسية وقسوة وعدوية وجفاء، تتجسّد في علاقة نون مع ما يحيط به من أمكنة ونساء. إذ شكّلت النساء اللواتي أحطن به فكرته عن العاطفة، وترتقي علاقته مع المكان ليصير الأخير شخصية معيارية وواحدًا من هموم النص الإنسانية، وذلك باستخدام لغة تصويرية تعكس تغيرات داخلية. إذ تتوارى الكاتبة خلف تساؤل نون عن أولئك الذين ألقوا الحجاب على شرفات بيروت التي لطالما أشرعت للأزهار والحرية.

يدفع بناء برج أمام شرفة نون إلى مغادرة منزله، والإقامة في فندق، سنعرف أنه مصح وبأنّ نون يخضع للعلاج النفسي لتداخل الأزمنة والأوهام لديه، وقد باع شقيقه المنزل ليسدّ نفقات العلاج. يبدو نون شخصًا تلقائيًا وحساسًا، يبحث عن إلهام خاص بين ركام الحروب. إنّه شخصية ركبها الكاتبة بتولًا، لم تلوّثه الآثام التي حدثت أمامه أو عبرته أو حدثت ضده. تتعاقب مشاهدات نون، لتؤدي الأبنية والناس دورًا واحدًا خربته الحرب الآفلة.

تعبّر أزمة الكتابة التي يعيشها نون عن مجتمع مأزوم، طالما أنّ الكتابة غادرت صاحبها في انتظار تغير الزمان. يتعزز غياب الكاتب في موضوعه، بوصف نفسه، كائنًا افتراضيًا يخرقه الهواء.

ترمي الكاتبة مفاتيح كثيرة لنصها، وتتكشف أستار النص/ اللغز بالتدرّج. نخبرنا عن الاسم الذي نهض من الورقة وصار رجلًا برأسٍ وقدمين. ينهض الاسم الذي هو نون، ويلاحق بدوره شخصه وإذا تعثر ذلك فإنّه يتهايم، ليقع القارئ على التباس بين عالمي نون.

لا تعتمد بركات إلى تصور قطعي لشخصياتها، وإثما تتركّن إلى فكرة القارئ عن نماذجها، مثل لقمان، وهو أحد أمراء الحرب، يؤدي دور القاتل دائمًا، حدّ التصاقه بصورة القتل، كأثما عبر تركيز القتل المتعدد في شخص واحد، تمنح



الكاتبة بحثها المضمّن في الحكاية عن علاقة الجلاد-الضحية. تركيزًا دراسيًا لا تشتته تشعبات الحكاية، حتى يظهر كلٌّ منهما حاجة للآخر.

تستخدم الكاتبة بطلها المعذب للحديث عن علاقات الآباء وقد صنعت رافة والده وتسلط والدته، قبل أن ينتهي الأول منتحرًا والثانية وحيدة في مأوى للعجزة، فالرواية محملة بمصائر رهيبية. منذ البداية تأثر نون تأثرًا نفسيًا عميقًا بتمييز والدته الشديد لصالح أخيه، بعدما انتظرت مولودًا بنتًا. ومن ثمّ يدفعه انتحار والده أمامه للتساؤل إن كان ابنًا لأحد في الحياة. وليكون مشواره في الدنيا سعيًا وراء يدٍ تغمره، بهذا فهو يطرح تساؤلات بريئة، لما كُتِبَ له أن يشاهده. في المصح رأى انتحار مريم وفي شقته رأى شايعا تُرمى من النافذة، شهد نون نهايات الجميع ما جعله ينشد نهايته.

لدى بركات نزعة فضولية لبناء نصٍ يتحدث عن كل القضايا في المنطقة، من النفايات، إلى البراميل والمهاجرين والخادمت الآسيويات. تجمع حكايا عابرة في آلتها السردية المحكمة. تظهر شخصيات وتختفي، يستخدمها نون ليوضح شيئًا من عثراته، وتستخدمها بركات لتوضح شيئًا من مقولاتها. تنمو الشخصيات وتأخذ حيزها، لتغيب ما إن يضيق وجودها بانتهاء المقولة التي حُمّلت إياها. حتى لعازر العائد من الموت، يظهر معادلًا لأولئك الراحلين إليه.

يجد السيد نون انتماءه العاطفي لدى شايعا النيبالية المضطهدة. حتى يحار القارئ أكان خلاص نون في الحبّ؟ أم في إنقاذ الضحية! يأخذها من عالمها البائس الاستغلالي إلى عالمه الحالم. وما إن خطف شايعا، حتى فكر بالعودة إلى الكتابة وإيقاف العلاج النفسي. إلا أنّ بركات لا تترك لهذه الدائرة أن تتسع، وإنّما تخنق عبرها شايعا ومن ثمّ نون. وتجعل من قصتهما، مثالًا لعلاقة الضحايا فيما بينهم. يفاوض نون السيد جو، مُشغّل شايعا، قبل انتباهه إلى أنّه يفاوض لشراء كائن بشري. في مشهد شايعا ونون وهما خاضعان للتعذيب بلغ تفسير بركات لعلاقة الضحية-الضحية نقطة بارعة، حيث تكرر الضحية الضحية وتتعلق بالجلاد.

تتابع بركات ميلها إلى تفكيك التفكير الانتقامي، وتصل إلى مكاشفة تجمع الكاتب/ نون مع القاتل/لقمان. يزعم لقمان وهو يدافع عن مصير خطّه له الكاتب، بأنّه لم يُمنح أية فرصة وقد رسمته إرادات كثيرة بصورة سيئة. بهذا تدين الرواية الحرب ولا تدين المتقاتلين، تدين الظلم وترقّع عن الظالمين. تُخبئ بركات وراء نصها رفضًا مريبًا للواقع، تساوم الذاكرة على لحظات جميلة لبيروت وبيوتها وأهلها. تضع قصة الطبيب، والد نون، الرواية في مصافٍ إنسانية أخرى.



فالتبيب الذي فتح النافذة وقفز منها، كان قد انتسبَ إلى غرباءٍ. عندما طلب من الممرضة التي أرهقتها المجازر أن تعطي الأطفال حقنة منومة، فإذ بها تعطيهم جرعة زائدة ثم تحقن نفسها بالإبرة ذاتها. ليقف لقمان عام ١٩٧٦ أمام مقدرة الطبيب على قتل الأطفال أثناء سعيه لإنقاذهم. وليتردد ذلك الموت الهادئ صارخًا في حياة الشهود وأدب الحرب.

يلغ الالتباس مداه بين الكاتبة وبطلها بتشخيص المعالجة النفسية لمرضه على أنه غير قادر على التمييز بين الواقع والخيال. بالمثل ترى بركات الأدب؛ أن يكون لك قدم في الواقع وقدم في الخيال. ولتكشف بعد هذا القول، حقيقة تُخرج النص من الواقع وترميه إلى الخيال، عبر أسطر قليلة عن انتحار كاتبة في المصح النفسي وقد أنهت مخطوط روايتها المستر نون بالقول "أخيرًا تخلصت منه". أيكون الخلاص ناصعًا هكذا؟ ومثلما يتناسل القتلة، يتناسل الكتاب!

الكاتب: [سومر شجادة](#)